

سوريا في المرحلة القادمة

الكولونيل شربل بركات

بعد دخول الحلفاء بغداد وزوال نظام صدام هل يبقى في الشرق الأوسط أنظمة ديكتاتورية أو توتاليتارية؟ أم أن الشعارات التي قامت على أساسها الحملة، والتي يعتبر إعادة الديمقراطية إلى المنطقة من أسسها، التي لا بد منها لوقف أي توجه جديد نحو الإرهاب، قد تتقلص شيئاً فشيئاً لتحل محلها سياسة "واقعية" ستضطر إلى "التعامل" أو "التسيق" مع هذه الأنظمة لكي تثبت أقدام "العهد الجديد" في العراق؟ ما يراهن عليه "الحرس القديم" في القيادة السورية هو، بحسب النظرية السورية أمام كل تغيير "سياسة الانتظار والترقب". ومن هنا يفهم تحرك السوريين السريع للرد على أي اتهام لهم بمساعدة "أهل النظام البائد" ما دفعهم بالأمس إلى إعلان إغلاق الحدود مع العراق خوفاً من اتهامهم بتهرب هؤلاء.

النظام السوري اليوم أمام مفترق بالفعل، فهل سيستطيع الرئيس بشار أن يستمر بسياسة والده أم أنه سيتحدى الواقع المفروض على العراق ويقف بشجاعة لمواجهة هجوم "الاستعمار الجديد" وماكينته العسكرية، التي لم يكن بمقدور صدام وحرسه الجمهوري ولا فدائييه أو جيشه الشعبي أو حتى أسلحته الكيماوية والجرثومية من وقفها؟ الرئيس بشار قد لا يكون صاحب خبرة في معالجة الأزمات بعد، ولكنه دون شك يعرف أن مثل هذه الظروف يلزمها الانحناء أمام العاصفة كي تمر، ثم يقوم بعدها ليكمل عمله المعتاد، وساعتئذ ينسحب من جديد لأزلامه بالتشدد على الكبار وتهديد الولايات المتحدة، كما فعل ويفعل حسن نصر الله أو جنبلات أو العريضي.

الرئيس بشار لا بد خائف لا بل مرتعب من الوضع الجديد فقد كان يأمل أن يصمد صدام قليلاً لكي يخسر الأميركيون فعل الصدمة ويذوقون كما فعل لهم أزلامه في ١٩٨٣ في بيروت، طعم العمليات الانتحارية فيهرعون إليه ليرد عنهم بعض الذل ويسمح لهم بالانسحاب. ولكنهم هذه المرة بدوا أكثر صلابة مما توقع هو وأزلامه، أو إن صدام وآلته العسكرية كانت هيكل من كرتون؟ الرئيس بشار يستطيع أن يتحايل على أميركا إذا كان، كوالده، يعرف أن يلتزم، فهو قادر على تسليم نصر الله وجماعته الإرهابية في كل وقت، طالما أصبحت الولايات المتحدة على عتبته وليس صدام أو إيران. وهو يستطيع أن يقلل كل دكاكين الفلسطينيين فيريح شارون من شرهم، كما فعل والده يوم حارب عرفات في طرابلس وهجره إلى تونس مرة ثانية. وهو قادر على فوط الجماعة الإسلامية وكل فتات القاعدة ومن لف لفهم في لبنان، وإقفال المخيمات الفلسطينية بوجههم، وإلقاء القبض على أئمتهم في طرابلس والضنية وصيدا وبيروت. وهو قادر، إذا ما

طلبت منه أمريكا، حتى على وقف زراعة الأفيون والحشيش وتوقيف كل تجار المخدرات وشبكات تزوير الأموال ومافية السيارات المسروقة عالميا. وهو قادر على دفع الحريري وفلرس وكل من له علاقة بالأمريكيين، للاستجداء على أبواب واشنطن أن يقبل له حتى بالانسحاب من لبنان، شرط أن لا يمس النظام في دمشق.

ولكن، هل يقدر الأمريكيون بعد اليوم أن يقبلوا ببقاء نظام بعثي آخر، هو من نفس الطينة، وقد قام بنفس الأعمال التي قام بها صدام، من قتل شعبه، واستغلال فلسطين، وتخريب لبنان، ونشر الإرهاب قاعدة وسيفا مسلطا على رؤوس الديمقراطيات والأنظمة الحرة طيلة أكثر من ثلاثين سنة؟ هل يمكن أن يسمح لمثل هذا النظام أن يستمر وسجون المزة وتدمر وغيرها تعج بالأبرياء وبسجناء الرأي الآخر؟ هل يقبل الأمريكيون أن يبقى نظام دمشق البعثي، ولو كان علمانيا، كما قال كيسنجر، (لأن نظام صدام كان أيضا علمانيا وبعثيا كنظام دمشق)، وهل يمكن، وفي هذا العصر، أن تستمر أنظمة على شاكلة النازية والفاشستية تربي أجيالا على الحقد وتبقي شعوبها خائفة جائعة تنتظر رحمتها أو دفعها إلى آتون الحروب عليها تجد ما تسد به الرمق؟

إن أفضل الحلول التي يمكن أن يقوم بها الرئيس الأسد هي أن لا ينتظر إشارة أميركا بل يبدأ فوراً بتفكيك كل المنظمات الإرهابية، وتسليم كل المطلوبين، وإلغاء الجزر الأمنية في لبنان، والطلب من لحدود أن يجري اتصالاته بالمعارضة في الخارج وخاصة في أميركا ويطلب إليها أن تدخل في حكومة وحدة وطنية، أول مهماتها أن تشهد انسحاب السوريين، وتؤكد من حل كل شبكاتهم المخابراتية والإرهابية، وتجري انتخابات ديمقراطية، ينتج عنها مجلس يمثل الشعب فعلا ينتخب رئيسا جديدا، وحكومة قادرة على ضبط أمور الناس والخروج من مأزق الاستزلام وإدارة الدولة على طريقة الإلتزام. ثم يركض بجيشه ومخابراته إلى سوريا فيفتح السجون، ويسمح للمعارضين أن يتكلموا، ويدخل التعديلات على نظام حكم الحزب الواحد، ويقدم استقالته طوعا، أفضل من أن يقال بالقوة، ويترك المجال للسوريين أن يختاروا رئيسا ومجلسا وحكومة تستطيع أن تصنع السلام، وأن تعترف بالجيران وحقهم بالسيادة، وترتفع إلى مصاف الدول الجارة؛ لبنان ما بعد الديمقراطية، والعراق ما بعد الديمقراطية، واسرائيل الديمقراطية، ولما لا يكون الأردن أيضا أكثر ديمقراطية بعد أن تزول المخاوف من جيرانه في الشرق والشمال. قد يقول القارئ بأننا نحلم، صحيح، ولكن أوليس الواقع المرتجى يبدأ دوما بحلم جميل؟

٢٠٠٣/٤/١٣